

(١)

الضوابط الشرعية للإنجاب وحق الطفل في الرعاية والنشأة الكريمة

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، **وبعد:**

فقد اهتم الإسلام ببناء الأسرة اهتماماً كبيراً، واعتنى بها عنايةً فائقةً تليق بدورها في إعمار الأرض، وبناء المجتمع، واستقرار الأوطان وتمييتها، وإن من مظاهر هذا الاهتمام، ودلائل تلك العناية أن شرع الله (عز وجل) الزواج، وجعله آية من آياته؛ ليكون طريقاً شرعياً لبناء الأسرة في صورة تليق بكرامة الإنسان، وتتوافق مع فطرته السليمة، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}.

وإن من مقاصد الزواج وأهدافه بعد شكر نعمة الله (عز وجل)، بقاء الجنس البشري بالإنجاب والتناسل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}، ويقول سبحانه مخاطباً نبيه (صلى الله عليه وسلم) ومبيناً أن الزواج وطلب الذرية سنة الأنبياء (عليهم السلام) من قبله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً}.

ولاشك أن الأبناء نعمة من أجل نعم الله (تعالى) على الإنسان، فهم هبة الله وعطيته، يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا نَاهٍ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}، ويقول سبحانه: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ

(٢)

رَبِّكَ تَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}، ولقد ذكر لنا القرآن الكريم في غير موضع طلب الأنبياء والصالحين للذرية ورغبتهم فيها ، فهذا خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) يدعو ربه قائلاً: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}، وهذا زكريا (عليه السلام) يدعو ربه راجياً: {رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}، وإن من صفات عباد الرحمن أن يتضرعوا في دعائهم قائلين: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}.

والمتدبر في هذه الآيات يرى أن طلبهم ودعائهم كان مقيداً دائماً بطلب الذرية الصالحة النافعة المباركة ؛ لأن الغاية والهدف من الإنجاب والتناسل ليس الكثرة والعدد، وإنما العطاء والصالح ، فكم من قلة يُرجى خيرها وبركتها ، وكم من كثرة لا خير يُرجى منها ولا بركة تنتظر ، وهذا مفهوم عام أقره القرآن الكريم في قوله تعالى: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}.

ولقد راعى الإسلام في تشريعاته وأحكامه الضوابط والتوجيهات التي من شأنها أن تحفظ حقوق الطفل ، وتجعله ينشأ نشأة كريمة ، ويلقى رعاية كاملة في جميع مراحل حياته بداية من اشتراط الباءة في النكاح ، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ) مع بيان أن الباءة المعتبرة في النكاح فضلاً عن الإنجاب هي القدرة التامة على بناء أسرة مستقرة ، والوفاء بحقها ، وليس مجرد القدرة الجسدية ، وإلا لما قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ)، فالخطاب بهذه الجملة موجه لمن يمتلك قدرة جسدية ولا يستطيع الوفاء بسائر الجوانب الأخرى المطلوبة لإقامة أسرة سوية ، بما في ذلك النفقة والسكن والقدرة على تربية الأبناء.

* وإن من أهم مظاهر رعاية الإسلام للطفل أن كفل له **حقه في الرضاعة الطبيعية** **حولين كاملين** دون أن يزاومه طفل آخر خلال تلك المدة ؛ حفاظاً على حقه في التغذية الصحيحة السليمة التي من شأنها أن تساعد على بناء جسده بناءً قوياً حتى ينمو في صحة جيدة ، فقال تعالى: { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ } ، وفي ذلك تأكيد على ضرورة أن يكون هناك تنظيم بين الحمل والآخر ، فالإرضاع حق للطفل ، حتى أن الفقهاء اعتبروا أن الحمل الذي يحدث في وقت الإرضاع إنما هو جور على حق الطفل الرضيع ، بل جور على حق كل من الرضيع والجنين ، فسموا لبن الأم آنذاك لبن الغيلة ، وكان كلام من الطفلين قد اغتال أو اقتطع جزءاً من حق أخيه ، مما قد يعرض الطفلين (الرضيع ، والجنين) لمشاكل في النمو ، قد تصاحبهما أو تصاحب أحدهما طوال حياته أو جزءاً منها ، إضافة إلى المشكلات الأسرية التي قد تنتج عن تلاحق عمليتي الحمل والإرضاع ، فالحمل والإرضاع المتتابعان قد يكون لهما أثر سلبي كبير في تدهور العلاقة داخل الأسرة بين الزوجين ، وانعكاس سلبي على حياة الأطفال وعدم القدرة على الوفاء بحقوقهم .

وعليه فالأولى أن يأخذ كل طفل حقه في مرحلتي الحمل والإرضاع ، وكذلك في التربية السوية ، مع ضرورة الوفاء بحقه في المطعم والملبس والصحة والتعليم ، وقد أجاز النبي (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه العزل ، وهو أحد وسائل تنظيم النسل ، ويقاس عليه كل ما يستحدث من الوسائل الصحية الآمنة الميسرة طبيياً .

إن التقصير في حق الأبناء ، وعدم الوفاء بواجباتهم في التربية يعدّ ظلماً لهم ، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يوضح لنا أننا مسئولون عن أبنائنا الذين هم أمانة في أعناقنا ، فيقول (صلى الله عليه وسلم) : (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعْوَلُ) ، وفي رواية: (كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (كُلُّكُمْ

(٤)

رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالِإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).

قد يظن البعض توهمًا أن الحديث عن تنظيم العملية الإنجابية يقتصر فقط على الجوانب الاقتصادية وما يترتب عليها من آثار سلبية ، ولكننا نؤكد أنه إلى جانب هذه الآثار الاقتصادية هناك آثار صحية ونفسية وأسرية ومجتمعية يمكن أن تنعكس على حياة الأطفال والأبوين والأسرة كلها ، ثم المجتمع ، فالدولة ، فالزيادة السكانية غير المنضبطة لا ينعكس أثرها على الفرد أو الأسرة فحسب ، إنما قد تشكل ضررًا بالغًا للدول التي لا تأخذ بأسباب العلم في معالجة قضاياها السكانية ؛ لذا فإننا نؤكد أن تصحيح المفاهيم الخاطئة فيما يتصل بالقضايا السكانية يدخل في صميم تجديد وتصويب الخطاب الديني وتصحيح مساره .

ومن هذا المنطلق يمكننا فهم حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي حث فيه على طلب الذرية ورغب فيها بقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (تَنَاجَحُوا ، تَكَثَّرُوا ، فَإِنِّي أَبَاهِي بِكُمْ الْيَوْمَ الْقِيَامَةَ) ، وفي رواية قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مَكَاتِرٌ بِكُمْ الْيَوْمَ) فالمباهاة في الحديث ليست بالكثرة المستهلكة الضعيفة ، التي تصبح عالية على الآخرين في طعامها وكسائها ودوائها ، جاهلة متخلفة تعاني الفقر والمرض والتخلف بكل أنواعه العلمي والثقافي والحضاري ، فهذه كثرة سلبية تضر ولا تنفع ، وتفسد ولا تصلح ، عبر عنها النبي (صلى الله عليه وسلم) بغشاء السيل ، بقوله : (يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا) فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ : (بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ

(٥)

صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةِ مِنْكُمْ، وَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ)، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: (حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)، وإنما المباهاة في الحديث الشريف تكون بالكثرة القوية، المؤمنة، الصالحة، النافعة، العاملة، المنتجة، الملتزمة أمر ربها وسنة نبيها (صلى الله عليه وسلم) التي يقول فيها: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ...)، إنها القوة التي تكون في العقل والفكر، والثقافة، والمستوى الإيماني، والتعليمي، والاقتصادي، والعسكري، فالكثرة العددية القوية هي التي تحتاج إليها الأمم حين تكون مواردها الاقتصادية متسعة وتنقصها الأيدي العاملة أو القوى البشرية التي تحافظ على ثرواتها، وتحمي مقوماتها الاقتصادية، وحدودها، ومواردها الطبيعية، هذه الكثرة هي التي يمكن أن نباهي بها الأمم في الدنيا، وأن يباهي نبينا (صلى الله عليه وسلم) بها الأمم يوم القيامة.

ولقد جاءت الآثار عن بعض الصحابة (رضوان الله عليهم) بما يدل على فهمهم لهذا المعنى من كلام النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقد روي أن سيدنا عمرو بن العاص (رضي الله عنه) عندما فتح مصر خطب فيهم قائلاً: (يَا مَعْشَرَ النَّاسِ، إِبَائِي وَخِلَائِي أَرْبَعًا، فَإِنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى النَّصَبِ بَعْدَ الرَّاحَةِ، وَإِلَى الصِّيْقِ بَعْدَ السَّعَةِ، وَإِلَى الْمَذَلَّةِ بَعْدَ الْعِزَّةِ، وَإِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْعِيَالِ، وَإِخْفَاضَ الْحَالِ، وَالتَّضْيِيعَ لِلْمَالِ، وَالْقَيْلَ بَعْدَ الْقَالِ، فِي غَيْرِ دَرَكٍ وَلَا نَوَالٍ)، وفسر ابن عمر (رضي الله عنهما): (جُهِدُوا الْبَلَاءَ بِكَثْرَةِ الْعِيَالِ مَعَ قِلَّةِ الشَّيْءِ).

وعلى هذا فإننا نوكد أن تنظيم الأسرة ضرورة شرعية ووطنية، وأمر مباح يصل في واقعنا المعاصر، وحالنا الراهن إلى حد الضرورة الواجبة لبناء جيل قوي مثقف قادر على بناء الحضارة، ونهضة البلاد، بفكرٍ واعٍ وعقلٍ مستنيرٍ، يقدر معنى المسؤولية ويقوم بها على أكمل وجه، وأفضل صورة.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم

* * *

(٦)

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن من مظاهر رعاية الإسلام للأطفال: **الأمر بالإحسان إليهم والرحمة بهم ، وحسن رعايتهم** ، فمن المقرر شرعاً أن الرفق لا يأتي دائماً إلا بكل خير ، فالقسوة والغلظة في التربية وتقويم سلوكيات الطفل تؤدبان في أغلب الأحوال إلى نفوره من المرَبِّي ، وبغضه ، وعدم الانصياع لكلامه ، وقد ورد في الأحاديث الشريفة أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يحمل الحسن والحسين (رضوان الله عليهما) على كتفيه ويلاعبهما ، ويقبلهما ، وكان منهجه (صلى الله عليه وسلم) في التربية هو اللين والرفق ، فعن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (يا عائشة إن الله رقيقٌ يحبُّ الرفقَ ، ويُعطي على الرفقِ ما لا يُعطي على العُنفِ ، وما لا يُعطي على ما سواه) ، وعن ابنِ بُرَيْدَةَ ، عن أبيه ، قال: بيّنَا رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) على المنبرِ يخطبُ إذ أقبلَ حسنٌ ، وحسينٌ ، وعليهما قميصانِ أحمرانِ يمشيانِ ويعثرانِ فنزلَ فحملهما وقال: (صدقَ اللهُ {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} ، إِنِّي رَأَيْتُ هَدَيْنِ يَمْشِيانِ ، وَيَعْتِرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى نَزَلْتُ فَحَمَلْتُهُمَا) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (لا يكونُ لأحدٍ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِنَّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه): (وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِيَّ امْرَأَتِكَ) .

* ومن مظاهر رعاية الإسلام للأطفال: **الأمر بالعدل والمساواة بينهم جميعاً** ، وقد وجه النبي (صلى الله عليه وسلم) الآباء والأمهات لهذا المبدأ وضرورة الالتزام به ، بل

(٧)

وقرن الأمر به بالأمر بتقوى الله (عز وجل) ، فعن عامرٍ ، قال: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةَ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتُ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرْتَنِي أَنْ أَشْهَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟) ، قَالَ: لَا ، قَالَ: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعِدُّوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ)، قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ .

ومن العدل والمساواة عدم التفرقة في المعاملة بين الذكر والأنثى ؛ حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كَانَتْ لَهُ أَنْثَى فَلَمْ يَيْدْهَا، وَلَمْ يُهْنِهَا، وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ).

لقد كانت تلك بعض الضوابط والتوجيهات التي وضعها الإسلام حماية للأطفال ورعاية لهم ؛ لينعموا بحياة كريمة ، فهم شباب المستقبل ، وأمل الأمة المرتقب ، فعلى أن ندرك جميعاً حجم مسؤوليتنا تجاه أبنائنا ، وأن نقوم بها خير قيام ، وأن نعلم أننا مسؤولون عنها أمام الله (عز وجل) يوم القيامة .

**اللهم فقهنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ،
ولا مبلغ علمنا ، واحفظ علينا أوطاننا وأبنائنا .**